محل الحضارة العربية

للدكتور جواد علي

هل هنالك حضارة عالمية اشترك في تكوينها جميع أفراد البشر على اختلاف أشكالهم وأجناسهم ؟ أم هل هنالك حضارات مختلفة لكل حضارة ميزة وعقلية تمثل عقلية الجيل أو الأمة؟ أم هل هنالك حضارة واحدة تغذى العالم كله وتشع عليه كما تشع الشمس على الأرض ؟ تلك نظريات مختلفة تمثل نزعات علمية وسياسية متضاربة وغايات متباينة . غير أن الرأي السائد اليوم بين جمهور المؤرخين ومنقبي تاريخ الحضارة هو أن هنالك تفاوتاً بين البشر ، كما أن هنالك تفاوتاً بين الحيوان أو النبات ، وأن الحضارة التي هي إنتاج البشر العقلي تختلف لذلك تبعاً لاختلاف المجموعات البشرية[1] ، وهذه النظرية على طرق نقيض مع نظرية هيردر J. G. Herder (١٧٤٤ — ١٨٠٣) ، ونظرية التطور التاريخي[2] للفيلسوف هيكل G. W. F. Hegel (١٧٧٠ — ١٨٣١) ، ونظرية (« الانسانيين » Humanismus)[3] ، وأتباع الكنيسة من المؤرخين

والمسألة لم تقف عند هذا الحد مع ذلك بين أصحاب نظرية تعدد الحضارات ، إذ أن من بين هؤلاء من يدين بفكرة تأثر الحضارات بعضها ببعض ، كما هي نظرية الفيلسوف الألماني Graf Key-serling مؤسس « دار الحكمة » في مدينة Darmstadt الألمانية والمستشرق C. H. Becker ، وجمهرة من المستشرقين ، كما أن هنالك مثل الفيلسوف O. Sprengler من يقول بتعدد الحضارات مع وجود نفسية خاصة لكل حضارة ، أو استقلال تام كما هو رأي الفيلسوف Ernst Troeltsch [4]

(١) انظر كتاب Ernst Troeltsch المسمى Kulturgeschichte في مجموعة Schmollers ص ٦٣٣ من المجلد XL IV

(٢) انظر Schmidt Entwicklungsgeschichte قاموس الفلسفة ص ١٥٨

(٣) انظر Schmidt أيضاً ص ٢٧٢

(٤) انظر C. H. Becker في كتابه Islamstudien ج ١ ص ٢٤ طبعة ١٩٢٤

أما أصحاب فكرة وجود حضارة واحدة هي سبب هذا التطور العالي والتقدم البشري المطرد فهم أصحاب العواطف المتطرفون من الأوربيين كالفرنسي رينان Renan في محاضراته التي ألقاها في عام ١٨٨٣ Luschan في كتابه تاريخ الحضارة السامية و Jehering وكرافر كوبينو والنازيين الألمان وفاشست إيطاليا . ولكن معظم أصحاب هذه النظرية هم أناس ليسوا ذوي اختصاص في الموضوع ولا دراسة ناتجة عن استقراء علمي محدود ، بل هم من ذوي الطريقة الفلسفية العامة التي تحاول الإلمام بكل شيء وتضع القوانين حسب قواعد رأتها صالحة لذلك . والحضارة العربية في نظر هؤلاء حضارة سطحية ظاهرية أنتجتها عقلية آرية ومنابع يونانية فارسية هندية غوطية . وحيثما وجد الإنسان ظاهرة من ظواهر الحضارة في البلاد العربية فلا بد من إرجاعها إلى عقلية آرية وإنتاج غير سامي[1] . ودوزنبرك الدكتاتور النازي للشؤون الثقافية الذي لم يسلم إلا بالزخارف المروقة باسم Arabeska يحاول الحط من قدر هذه ، فيجعلها تمثل عقلية ساذجة لا غير[2]

غير أن النظريات لا قيمة لها أبداً إن لم تدعم بالنصوص والبراهين ، كما أن الاستشهاد بحادثة أو رواية لا يتخذ حجة للحكم به على أمة . وإني أستطيع أن أجعل من الأمة الجرمانية أمة همجية بربرية مادية خاملة لم تنهض إلا أخيراً ، كان يحاول زعماؤها إيقاظها، بالاستناد إلى النصوص الجرمانية نفسها المجموعة في المصادر والمتابع عن التاريخ الجرماني[3] . ويستطيع كل مؤرخ أن يفعل ذلك في تأريخ أي أمة كانت ولا سيما إن كانت أمة ضعيفة في وقته منحطة . وأستطيع أن أقول إن الأمة العربية لو كانت في الوقت الحاضر قوية لكانت النظرية على العكس تماماً وفي المصادر

(١) انظر خلاصة آراء هؤلاء في كتاب H. S. Chamberlain بعنوان Die Grundlagen des Neumehnten Jahrhunderds ص ١٢٤٠

(٢) انظر كتاب Alfred Rosenberg المسمى Der mythebs طبعة ١٩٣٠

(٣) انظر كتاب Reichmann المسمى Ein Jahrtausend Deuts-cher Kultur المطبوع في لايبزك حيث تجد نتفاً ومنابع مستقاة من كتب التاريخ والأسفار المختلفة في عصور مختلفة وكذلك المنابع المطبوعة في اللغة الانكليزية أو الفرنسية عن حياة هذه الأمم، وإني كفيل بأن القارئ سيعرف تاريخ أوربا تماما .

والنقوش الأثرية ما يبرهن على أن وضع حدود وحواجز بين حضارة وحضارة ومحاولة عزل الحضارات بعضها عن بعض أمر غير ممكن . حتى فى المسائل الروحية تتأثر الأمم بعضها ببعض . فمحاولة كتابة تاريخ أوربى فقط لا تنجح تماماً إن لم يتطرق المؤرخ فى بحثه إلى الحضارة الإسلامية ، كما أن محاولة كتابة تاريخ عربى مجرد عن ذكر أى تأثير للحضارة الغربية محاولة فاشلة غير علمية[١]

ولو درس التاريخ العربى كما يدرس التاريخ بجميع فروعه فى الجامعات الأوربية، أو لو انصرف المؤرخون إلى دراسة النصوص الأوربية على العلاقات بين أوربا والشرق الأدنى لتغيرت نظرية أصحاب العزلة تماماً. وهناك مؤثرات أثرت تأثيراً شديداً من جانب العرب ليست فى الحياة المادية بل فى الحياة الروحية الأوربية التى هى من أصعب الأشياء لما بين العقليتين من فروق . ومن أمثلة ذلك الشعر فى القرون الوسطى وظهور نوع جديد منه هو الشعر الغزلى على الطريقة الشرقية والروايات العربية والتصوف الذى أطلق عليه اسم « التصوف الألمانى » وكان زعماؤه يجيدون اللغة العربية ودرسوا وترجموا الكتب إلى اللغة اللاتينية[٢]

وقد غير كثير من أصحاب نظرية « الشرق شرق والغرب غرب » نظريتهم حين توغلوا فى البلاد العربية وجابوا البلاد الأفريقية، وتوصل بعضهم إلى أن الحضارة العربية تعود إلى الحضارة الأوربية لا الحضارة الأسيوية، وأن السيد أمير على المسلم الهندى أقرب جداً إلى أوربا عقلاً وثقافة من الفيلسوف طاغور الأسيوى فكراً وعقلاً[٣]. كما لاحظ الأوربيون الذين ذهبوا إلى السودان وأعالى النيل أن التفاهم مع المصريين المسلمين كان يزداد يوماً فيوماً كلما تقرب هؤلاء من العالم الأسود ، وكذلك كان الحال فى نواحى أفريقية الأخرى . كما لاحظ المستشرقون أن اللغات الهندية الأوربية تتقارب مع السامية جداً بالنظر إلى اللغة السودانية أو لغة البانتو مثلاً . وقد ظهر أن الأتراك أقرب إلى أوربا عقلياً من اليابان ، مع أن اليابان هى فى مدنيتها أوربية محضة ، ولكنها فى حضارتها أسيوية محضة ، وقد جعلوا سبب ذلك تأثير الحضارة الإسلامية[١]. وأغرب من ذلك هو أن القبائل الإفريقية أو قبائل الهند الهولندية حينما تسلم تسرع إلى لبس الملابس وإلى التقرب من الأوربيين أكثر من الوثنيين الابتدائيين. وهذه المسألة كانت من أهم المسائل التى درستها الحكومة الألمانية قبل الحرب لتعيين سياستها تجاه الإسلام[٢]

يرجع بيكر Becker ذلك إلى الأصول التى تتألف منها كل من الحضارتين الأوربية والعربية ، فبينما نجد الحضارة اليونانية الرومانية والحضارة المسيحية والحياة اليومية الأوربية هى الأسس التى تكون الحضارة الأوربية نرى الحضارة العربية متأثرة بالعاملين الأولين مضافاً إليهما العقلية السامية الخاصة ، وهذا هو سبب التقارب الموجود بين الحضارتين[٣] ولكن ذلك لا يعنى أن الحضارة العربية مشتقة أو هى جزء من الحضارة الأوربية ، بل هى وسيلة بين الحضارة الأوربية والحضارة الأسيوية[٤] لها مميزاتها الخاصة ومثلها العليا ، ونظرتها العالمية

هنالك حضارة كما أن هنالك مدنية، ومن الخطأ عدم التفريق بينهما، كما أن من الخطأ تفضيل حضارة على حضارة بصورة مطلقة دون قيد أو شرط ، إذ أن كل حضارة تمثل نفسية خاصة هى وليدة عوامل مختلفة ، ومن الخطأ كذلك أن نتكلم عن حضارة أوربية بصورة عامة ، إذ أن بين شعوب أوربا من البون الشاسع كما فى شعوب البلقان ما لا يسوغ لنا إطلاق هذا التعبير . كما أن من الخطأ نكران الحضارات الأخرى، ولدينا أمثلة من الحياة اليومية لا تنكر

ميراد على
خريج جامعة هامبرك بألمانيا

(١) Becker فى كتابه دراسات إسلامية ص ٤٢ Islamstudian

(٢) انظر كتاب S. Singer Arabische und Europaische Poe-sie in mittelalter المطبوع سنة ١٩١٨ وكذلك كتاب Burdachs المعروف بـ Über den Ursprung des mittelalterlichen minnesan- ges و Liebesromans und Frauendienstes المطبوع سنة ١٩١٨ كذلك كتاب الاسبانى Miguel Asin Palacios المنون La Esca- tologia muslimana en la Divina Comidia. Madrid 1919

(٣) انظر كتاب الفيلسوف Graf Keyserling الذى ألفه عن سياحته حول العالم بعنوان Das Reisetagebuch lives Philosophen المطبوع سنة ١٩١٩ فى Dartmstal جـ ١ ص ٢١٣ — ١٥ وكذلك Becker جـ ١ ص ٢٤

(١) انظر Becker جـ ١ ص ٢٧

(٢) انظر كتاب Prof: Pfannmüller Handbuch der Islam — Literatur Berlin 1923 فى الفصل الثانى عشر منه

(٣) Becker ص ٢٨ (٤) كذلك ص ٣٥